

أستاذ الشعراء يقيم

هل تعرف أستاذ الشعراء في مصر؟ لا تتعب ذاكرتك وتستعرض أسماء شعرائنا الأحياء ! فإنه ليس واحدًا منهم. لقد مات منذ حوالي أربعين عامًا.. بعد أن عاش ثمانين سنة. بدأ حياته في القاهرة طفلًا يتيمًا، أبوه من غمار الناس، ثم دخل مدرسة المتديان، ومدرستى التجهيزية، والإدارة، والتحق ببعثة رسمية إلى فرنسا. فنال إجازة الليسانس في الحقوق من جامعة إكس لبيان، وعاد إلى مصر فتقلد فيها أكبر المناصب. كان أول نائب عام مصرى. ثم محافظًا للإسكندرية ووكيلًا لوزارة الحقانية (العدل)..

وفى عام ١٩٠٧ أحيل إلى المعاش.. وفى عام ١٩١٥ توقف عن نظم الشعر.. وفى عام ١٩٢٣ واجه الموت الذى طالما تساءل عن حقيقته فى حيرة وفى إيمان أيضًا.. فإسماعيل صبرى باشا كان يشك أحيانًا.. ولكنه لم يكن ملحدًا!

تعالى الله.. لا يعلم كنه الله إنسان
أتنكره؟ وأنت عليه - لو تعلم - برهان

وخطاب ربه قائلاً :

خشيتك حتى قيل : إني لم أئق بأنك تعفو عن كثير وترحم
وأملت حتى قيل : ليس بخائف من الله أن تشوى الوجوه جهنم

كان إسماعيل صبرى رقيقاً في حياته، تبدو رفته في
معاملته للناس.. فهو لا ينفر منهم ولا يجرى وراءهم، وإذا
عثر على صديق تعلق به في رقة، وإذا تصدى له عدو حاربه
في رقة أيضاً..

لم يكن أحد يعرف عن أبيه شيئاً، وكان الناس في أيامه
يفخرون بأبائهم، وقد نشأ يتيمًا، لم ير أباه.. فلم يذكره،
ولعله كان واحدًا من الفقراء البسطاء الكادحين. والفقير
والبساطة والكبح كانت في تلك الأيام مشار السخرية ،
وأحس إسماعيل صبرى أنه بلا أسرة فجعل الإنسانية أسرته
يتجه إليها في تصرفاته، وينفعل بآلامها وأحلامها، وأحاط
نفسه بسياج من دماء الخلق والتشبث بالكرامة والتجاوب مع
بلاده في عواطفها وإرادتها وأمانيتها، فلم يستطع أحد أن يتسلق

هذا السياج وينال من كرامة إسماعيل صبرى أو يعيره بأنه ليس له نسب وحسب. ولقد أشار الشاعر الخالد أحمد شوقي إلى ذلك فى قصيدته التى رثى بها صبرى فقال :

قل للمشير إلى أبيه وجده أعلمت للقمرين من أسلاف
شرف العصامين صنع نفوسهم من ذا يقيس بهم بنى الأشراف؟

قامت الثورة العربية، وجاء الاحتلال البريطانى ليحمى عرش الخديو توفيق فى عام ١٨٨٢، وكان إسماعيل صبرى يشغل المناصب القضائية فى المحاكم المختلطة، ولم نجد فى ديوانه ولا فيما نقل رواته عنه.. كلمة تعرض فيها لثورة عرابى بخير أو بشر، وكان صبرى مثل سائر الشعراء.. يرفع إلى الخديو قصائد المدح والتهنئة فى المناسبات، ولكننا لم نعثر له على قصيدة واحدة من هذا النوع، خلال عامى ١٨٨٢ و ١٨٨٣.

وبعد هذا التاريخ ظهرت قصائد يثنى بها توفيقاً فى الأعياد والمواسم. وقد خلت قصائد التهنئة والمدح للخديو من أى تعرض بالثورة العربية واقتصرت على التعبيرات التقليدية التى ابتذلها الشعراء من كثرة ما رددوها فى مثل هذا المجال.

وقصائد صبرى فى المناسبات الرسمية تهبط بمستواه فى اللفظ

والمعنى والذوق الفنى إلى هاوية النظامين فى عصور انحطاط
الأدب العربى.. أما قصائده العاطفية والقومية، والقصائد التى
بث فيها خواطره عن الحياة والموت، فإنها ترتفع به إلى ذروة
الدوق والرقة والحساسية وحلاوة التعبير، وهو بهذه القصائد
قد فرض أستاذيته على الشعراء وصارت له شخصية فنية
منفردة تلمع ليها غيايل من خفة ظل الشاعر المصرى : البهاء
زهير، ومن موسيقى الشاعر العرب القديم.. البحترى.

وقد عاصر صبرى شاعرًا كبيرًا.. هو محمود سامى
البارودى وكان البارودى قد بحث فى الشعر العربى الجزالة
والفحولة، بعد فترة طويلة ظل الشعر خلالها يرسف فى
المهنات اللغظية الفارغة.

ولم يكن البارودى شاعرًا فحسب، لكنه كان أحد زعماء
الثورة العربية، وفى عام ١٩٠٩ أصدر كتابه «مختارات
البارودى». فقرظه صبرى بقصيدة عبر فيها عن مفهوم الشعر
عنده فقال: «شعر الفنى عرضه الثانى».

ولقد كان صبرى يحافظ على أشعاره النابعة من نفسه..
محافظته على عرضه، كان يديم النظر إليها ويصقلها وينسقها

ويخشى أن ينشر القصيدة إلا بعد ما يطمئن إليها اطمئناناً فنياً
شاملاً.

ولم يكن لصبرى منهج مدرسى في الشعر، لكنه كان
صاحب ذوق رقيق، وقد اكتسب رقة ذوقه مما قرأه للشعراء
الفرنسيين والرومانسيين والتقت طبيعته المصرية الحديثة الساحرة
المرحة بطبيعته المصرية القديمة الباحثة عن الروح والخلود،
فكانت أشعاره تنبض بالفكرة، ولكنها لا تمس أعماقها.. وكان
مثل أهل عصره في كل مكان، لا يرى للفن وظيفة
إلا الإمتاع والإثارة، وتشمل الإثارة ما يتعلق بالفكر والعاطفة
معاً.

وكان ولعه بالفنون محصوراً في «الطرب» فهو يحب
الأصوات الجميلة وينظم لها الأغاني باللهجة المصرية، مثل:
«الخلو لما انعطف» و«خللى صدودك وهجرك»..

وقد نظم هذه الأغاني لعبده الحامولى ومحمد عثمان،
ويروى عنه أصدقاؤه أنه كان يهيم بجمال الكلمة واللحن، كان
إذا أعجبه لحن، ظل يسمعه أو يردده حتى تنتهى السهرة،
وإذا أعجبه بيت شعر أخذ ينشده ولا ينشد سواه إلى أن

ينام.. دخل عليه أحد زملائه وكان من رجال القضاء فقال :
السلام عليكم. ومد يده لمصافحته، وصافحه إسماعيل صبرى،
ولكنه لم يرد السلام، بل أخذ ينشد هذا البيت للبحترى :
ما أحسن الأيام لولا أنها يا صاحبي إذا مضت لا ترجع !
وعقدت الدهشة ملامح زميله.. فكان ينظر إليه في
تعجب، ويقلب كفيه وهو يقول : لاحول ولا قوة إلا بالله !
وغادره وتوجه إلى أنطون الجميل وخليل مطران وحافظ
إبراهيم، وكانوا يجلسون في أحد المقاهي، وأخبرهم أن إسماعيل
صبرى أصيب بجنون، وسألوه : كيف ؟! فروى لهم ما حدث
وتوقع منهم أن يحزنوا.. فإذا هم يضحكون، وأفهموه أن
إسماعيل إذا أعجبه بيت من الشعر يظل يردده حتى ينام..
فقال وماذا تسمون هذا؟ وقبل أن يجيبوا أجاب هو قائلاً :
هذا جنون !! وتركهم غاضباً..

وكان واضحاً في حياة إسماعيل صبرى بغضه للاحتلال
البريطاني ومساندته للمعركة الوطنية الشعبية التي يتزعمها
مصطفى كامل، وعندما كان صبرى محافظاً لاسكندرية، أراد
الزعيم الوطني أن يعقد هناك اجتماعاً عاماً يلقي فيه خطاباً

سياسيًا، فأرسلت نظارة الداخلية تعليماتها إلى المحافظة بإلغاء الاجتماع، واحتج إسماعيل صبرى على هذه التعليمات وقال : أنا المسئول عن الأمن في محافظتي.. ورخص بعقد الاجتماع وألقى مصطفى كامل خطابه التاريخي.. ولما مات مصطفى كامل.. رثاه إسماعيل صبرى بقصيدة باكية..

وظل مصطفى فهمى باشا يرأس الوزارة حوالى سبعة عشر عامًا، وكان متهمًا بمبالاة الاحتلال، فلما استقال عام ١٩٠٨ نظم إسماعيل صبرى أبياتًا هجاه بها وعدة مقطوعات تناولت بالتجريح كل الوزراء الموالين للاستعمار، كان يدعو الشعب إلى إقامة حكم نيابى، ويحمل على الاستبداد، وقد أشاد بأثار مصر وحث المصريين على لسان فرعون أن ينهضوا ويستعيدوا مجدهم، وذلك فى قصيدته الكبيرة :

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى إذا ونى يوم تحصيل العلا وان
لاتقربوا النيل إن لم تعملوا عملا فإؤه العذب لم يخلق لكسلان
وقد دعا إلى الوحدة بين الأقباط والمسلمين، وكان له دور كبير فى القضاء على الفتنة التى اشتعلت عقب مصرع بطرس غالى باشا، وفى ذلك يقول :

دين عيسى فيكم ودين أخيه أحد يأمرانا بالإخاء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قامت بتفريقنا دواعي الشقاء
مصرملك لنا إذا مائاسكنا وإلا فصر للغرباء
وهو يحارب الزواج من اثنتين ويدعو إلى تعليم المرأة، وفي ذلك يقول :

«نحن في حاجة إلى تعليم أبنائنا وناتنا، بل إن حاجتنا إلى تعليم بناتنا أشد، لأن بنت اليوم أم الغد، وحضن الأم في نظر العاقل مدرسة أولية يتلقى فيها الطفل المواد الأولى لغذاء جسمه وعقله، ولأن النساء نصف مجموع الأمة، وهيئات أن ينهض مجموع نصفه أشل»..

وهذه الآراء تتفق مع دعوة قاسم أمين، ومع ذلك لم يتعرض إسماعيل صبرى في شعره، مرة، لقاسم أمين. ولا لدعوته ولم يرثه عندما مات!! وكانت تربطه بسعد زغلول علاقات غامضة!! فلم يهاجمه عندما كان وزيراً في وزارة مصطفى فهمى، وداعبه بتجريح بعدما تولى وزارة المعارف في الوزارة التي أعقبت وزارة مصطفى فهمى..

ولما قامت ثورة ١٩ بزعامة سعد زغلول.. كان إسماعيل

صبرى قد سكت عن نظم الشعر تمامًا.. لا أحد يستطيع أن يعرف على وجه التحديد رأيه في الثورة ولا في الأحداث التي أعقبتها..

وكان صبرى يقول: أحب التوحيد في ثلاثة: الله.. المبدأ.. والمرأة.. وأحب الحرية في ثلاثة: حرية المرأة في ظل زوجها، وحرية الرجل تحت راية الوطن، وحرية الوطن في ظل الله.

وبرغم ترفع إسماعيل صبرى عن المهاترات، شارك في هجاء الكاتب الكبير محمد المويلحي بعد ما صفعه أحد الأعيان على وجهه عام ١٩٠٢.. وكان ينشر قصائده المجانية باسم مستعار.. وكانت جريدة المؤيد تنشر قصائد الشعراء ضد المويلحي.. بدافع الخصومة القائمة بين صاحبه على يوسف ومحمد المويلحي صاحب جريدة «مصلح الشرق».. وتتجلى العذوبة في الأشعار العاطفية التي نظمها صبرى.. يقول:

أترى أنت خاذل ساعة التوديع ياقلب في غسد أم نصيرى
ويك! قل لى: متى أراك بجنى راضيًا عن مكانك المهجور؟

ويقول :

أقصر فؤادى فما الذكري بنافعة ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً حل الصباية فاحقق وحدك الآن

وقد تضمن ديوانه مساجلة بينه وبين إحدى الأديبات، ولم
نستطع أن نعرف من هى هذه الأديبة.. إنها ليست الكاتبة
«مى».. فلم تكن تنظم الشعر، وليست على ما نظن «باحثة
البادية»..

تقول الأديبة المجهولة :

فديتك يا هاجرى فهل ترتضى بسالفدا؟
سهرت عليك الدجى وغت ولكن سدى!!

ويقول لها صبرى :

أهاجرى أطفنى لواعج لانتهى
مضت فى هواك السنون وما نلت ما أشتى

وترد عليه :

زمانك قبل انتهى ولا يرجع المنتهى
فحسى أن أزدهى وحسبك أن تشتى

وتحس المرارة في أشعاره التي يتحدث فيها عن الموت
يقول :

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأرم
ض..تم آمنة الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأ
م التي خلفتك للآعاب
لا تحف فالمات ليس بمالح
منك إلاماتشكى من عذاب
وحياة المرء اغتراب. فإن ما
ت... فقد عاد سالماً للتراب

وتلمس توجسه من الله خوفاً وهو يخاطبه قائلاً :
يا عالم الأسرار حسي محنة علمى بأنك عالم الأسرار
وقد اشتدت عليه وطأة المرض فزفر هذين البيتين :

يا موت هانذا فخذ ما أبقت الأيام منى
بنى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى
وفي يوم ٢١ مارس من عام ١٩٢٣ خطا إليه الموت
وأخذه. أخذه جسداً.. وأعطانا روحه وذوقه وفنه..